

في شباط/فبراير 1917، وفيما الحرب في عزمها، أطاحت نظام القيصر الأوتوقراطي الروسي بمظاهرات جماهيرية. وبعد ذلك بثمانية أشهر، في تشرين الأول/أكتوبر، استولت الطبقة العاملة، مستندة إلى تعبئة شعبية في البلد بأكمله، على السلطة السياسية، وبدأت بناء مجتمع جديد، اشتراكي. كان القرن العشرين يهتز بقوة.

وكما كان قد توقع البعض، وخشي البعض الآخر، أنجبت حرب 1914 العالمية ثورة.

أزمة النظام

إن ثورة 1917 الروسية هي لحظة الذروة في أزمة مستمرة كانت تهز المجتمع الروسي منذ أواسط القرن التاسع عشر. إن ذلك المجتمع، وكان قوة عسكرية كبرى في أوروبا (لكنها تنزل بكل ثقلها أيضا في آسيا)، كان مجتمعا مئبئا في وضع التخلف، في حين كان ينتصر نمط الإنتاج الرأسمالي في الغرب. هذا وقد حولت قمم الدولة القيصرية أن تحقق إصلاحات يمكن اختصارها بما يلي: الإصلاح الزراعي، ديمقراطية الجهاز الإداري، تحديث التعليم، سن قوانين اجتماعية، الاعتراف بحق الشغيلة في تنظيم أنفسهم، التصنيع "من فوق"، إعطاء استقلال قافي لقوميات الإمبراطورية، الخ. لكن كل محاولة إصلاح كانت جزئية وخجولا، ليليتها دائما إصلاح مضاد على درجة من الفظاظة تتناسب مع الحاجة لاستعادة التحكم بالقوى الاجتماعية والسياسية التي "تحررت" مؤقتا.

"قليلا جدا ومتأخرا جدا": انفجرت الأزمة في كليتها، للمرة الأولى في عام 1905. ولقد أخفقت الثورة المذكورة، لكن الأمر لم يكن سوى إرجاء للحظة الحسم. لقد شكل انفجار الحرب العالمية عام 1914 وقفة عنيفة لموجة جديدة من الإضرابات الثورية. وقد أخذ التاريخ بثأره بعد ثلاث سنوات: بات النزاع العالمي حقا هائلا لكل الشرور والالام، والحرمانات والتطلعات المتركمة على مدى السنين.

وراحت الأزمات تعلن عن نفسها. أزمة اقتصادية: لم يعد النظام يتوصل لتأمين الغذاء للسكان. أزمة سياسية-مؤسسية: الدولة المستبدة تفقد كل شرعية. أزمة زراعية: تعطش الفلاحين إلى الأرض بالضيق العام للحياة اليومية. أزمة القوميات: كان اختناقها يزداد في ظل روسنة قسرية.

ثورة شباط/فبراير 1917

لقد فجر البؤس غير المحتمل في شتاء 1916-1917 ثورة الجماهير في شباط/فبراير. كانت النساء -عاملات ومدبرات منازل- هن من أشعل الحريق بمناسبة "يومهن العالمي". فمن معامل النسيج امتد الإضراب بسرعة وعفوية ليشمل مجمل بروليتاريا بتروغراد، العاصمة في تلك الأيام. ولم تمر أيام قليلة حتى كان الإضراب الجماهيري يتحول إلى انتفاضة، مع انتقال الحامية إلى صفوف الثورة. سرعان ما انضافت إلى الهتاف "نريد الخبز" هتافات تطالب ب"الصلح الفوري" وب"سقوط القيصر". وفي زحمة الثورة، أنجز الشغيلة مآثر في التنظيم الذاتي، فلقد قاموا بتكوين سوفيات (مجالس) في المصانع، والأحياء وعلى مستوى المدينة، كما شكلوا حرا أحمر (ميليشيا ثورية). حتى في الجبهة انتخب الجنود لجانهم... ضباطهم! وفي ما بعد، خلال صيف 1917، بدأ الفلاحون مسيرتهم، هم أيضا، ساهبين من تحت النظام أي قاعدة اجتماعية.

ازدواجية السلطات

ما بين شباط/فبراير ونهاية تشرين الأول/أكتوبر 1917، عاشت روسيا وضعا ثوريا خاصا تمثل بازدواجية السلطة. إن الطبقة العاملة، الممتلكة تصميميا كافيًا لطرده النظام القيصري من مواقعه في شباط/فبراير، لم تكن جاهزة على الفور لانتزاع "كل" السلطة. لكنها غطت المصانع والمدن بشبكة كثيفة من المجالس سرعان ما امتدت إلى الجيش، وفي الأخير إلى الريف. إن تلك السوفيات، المتزايد عددها باستمرار والأفضل فأفضل مركزًا، وكانت سلطة مضادة حقيقية، باتت تهدد في كل لحظة بإطاحة البرجوازية.

اثنان من تلك البنى السوفياتية كانتا تلعبان دورا حاسماً: تلك المنتخبة على أساس مكاني، والتي تمارس في الوقت نفسه سلطة سياسية "في المجتمع"، وتلك التي تجسد بوصفها مجالس المصانع، الدينامية الهائلة التي تفعل فعلها وسط الطبقة العاملة.

هذه المجالس، المنبثقة من حاجات الجماهير الملحة، كانت تعكس أيضا حالة وعيها وأرائها المسبقة السياسية. لكي تنطرح مهمة الاستيلاء على السلطة بوضوح، ينبغي أن يدفع بها إلى المقدمة حزب ثوري، أي أن يجعل منها هدفا أولويا. إن المنظمة القادرة على التصرف بهذه الطريقة إنما هي الحزب البلشفي. ولكن هذا الأخير بقي في وضع الأقلية، بين الشغيلة وفي السوفيات حتى أيلول/سبتمبر 1917. هكذا، إن تاريخ ازدواجية السلطة هو أيضا تاريخ الصراع بين مختلف الأحزاب السياسية في الحركة العمالية والشعبية لقطع العقدة "الغوردية" (*) للسيرورة الثورية: مع أخذ المجالس للسلطة أو ضد ذلك.

تطور موازين القوى: شباط/فبراير-حزيران/يونيو

في مرحلة أولى، كانت مختلف التيارات الإصلاحية (المناشفة، الاشتراكيون-الثوريون، العماليون) تسيطر على بني التنظيم الذاتي. كانت تقود السوفيات، وسرعان ما سنتضم (منذ أيار/مايو 1917) غلى الحكومة المؤقتة (البرجوازية). كانت تحاول عرقلة الاندفاع الشعبي بسياسة تعاون طبقي.

إن تطور الوضع داخل المجالس خلال فترة ازدواجية السلطة بات من الآن وصاعدا وثيق الارتباط بمسار صراع طبقي يزداد تفاقما.

في أوائل نيسان/أبريل 1917، جمع الكونفرانس الأول للسوفييتات -الذي جرى وصفه بكونه لعموم روسيا، بينما كان في الواقع يتعلق على وجه الحصر تقريبا ببطرسبورغ- 480 مندوبا عن العاصمة، و 138 عن المجالس المحلية و 46 عن الجيش. وقد قدم دعمه للحكومة البرجوازية الليبرالية برئاسة الأمير ليفوف (في الوقت نفسه الذي اشترط فيه ممارسة رقابة عليها!) وساند مواصلة الجهد العسكري، في حين دعا إلى توسيع حركة المجالس لتشمل كل البلد.

في نهاية نيسان/أبريل حاولت الحكومة أن تطلق مجددا سياستها الحربية، متسببة بمظاهرات كبرى وحركة إضرابات حازمة لأجل المطالب الاقتصادية الفورية. باتت عقارب الساعة تميل إلى اليسار. ففي المؤتمر (الأول) للمجالس المصانع في بتروغراد، حاز البلاشفة الأغلبية بفضل دعمهم لشعار "اليوم من 8 ساعات عمل من دون شروط" و"الرقابة العمالية" (421 صوتا ضد 325). لكن على سبيل المفارقة، عبر هذا الانعطاف اليساري في قمة الدولة وعلى مستوى البنى القومية للسوفييتات، عبر عن نفسه بادئ ذي بدء، على حساب الليبراليين، بتعزيز مواقع الإصلاحيين (مناشفة، اشتراكيين-ثوريين) وبالتالي دخولهم في حكومة ائتلاف "بين الطبقات"، باتوا يقودونها مذاك.

في بداية حزيران/يونيو، اجتمع أول مؤتمر حقيقي للنواب العمال والجنود. كان يمثل، بمندوبيه الـ 1090 المنتخبين 5بينهم 822، مندوبون وفقا للأصول ويحوزون حق التصويت-، حوالي 20 مليوناً من الأشخاص. كان منتخبا بالاقتراع العام، وبشكل بذلك الهيئة الأكثر تمثيلاً وديمقراطية التي سبق أن عرفتها الدولة الروسية. وعلى قاعدة تعددية سياسية كاملة، ناقش على مدى ثلاثة أسابيع (3-30 حزيران/يونيو)، كل مسائل السكان الحيوية. كان يضم 283 عضواً اشتراكيا-ثوريا، و 248 منشغياً، و 105 بلاشفة، و 73 غير حزبيين، فيما ينتمي الباقون إلى شتى المجموعات الاشتراكية الأقلوية. أما لجنته التنفيذية، التي كانت تبدو "كحكومة مضادة" حقيقية، فضمت 104 مناشفة، ومئة اشتراكي-ثوري، و 35 بلشفياً، و 18 اشتراكياً من اتجاهات أخرى. وقد أعاد تجمعه بعد فترة قصيرة مع اللجنة التنفيذية لمؤتمر الفلاحين لعموم روسيا، الذي انعقد بشكل منفصل، وحيث كان يمتلك الاشتراكيون-الثوريون الاحتكار المطلق.

إن حكومة الائتلاف، التي كانت شعبية جدا في البداية، فقدت حظوتها سريعاً. إن الأسباب تنتج الآثار نفسها، لكن مثبلةً بوعي طبقي في حالة استيفاء: مرة أخرى تتدخل الجماهير الشعبية مباشرة في الحلبة السياسية، مع طرائقها النضالية الخاصة بها. إن لجنة المجالس التنفيذية، التي أحست بالضغط القادم من الأسفل، وكانت بقيادة إصلاحية، سمحت بتظاهرة، وهي عملية حقيقية لاسترجاع (إلى مواقع محافظة) سياسي. إلا أنه في 18 حزيران/يونيو، في بتروغراد، كانت الشعارات البلشفية -وقبل كل شيء شعار "كل السلطات للسوفييتات" (التي كانت لا تزال بقيادة إصلاحية)- هي التي أحرزت الغلبة، لا بل غلبة ساحقة.

الثورة والثورة المضادة: تموز/يوليو-أب/أغسطس

لقد تم امتحان موازين القوى الجديدة خلال "أيام تموز/يوليو".

لقد حصل الاستعداد للقفز حين تمت مظاهرة 18 حزيران/يونيو. فسرت بروليتاريا العاصمة هذا النصر الأول على انه بداية الهجوم النهائي. وهكذا، متجاوزةً حتى الحزب البلشفي، أخطأت هذه الطليعة الجماهيرية تقديرها للوضع. لقد تقدمت كثيراً. وبالتالي، وفي بداية تموز/يوليو، رجعت عقارب الساعة، فجأةً وبعيداً جداً، باتجاه اليمين. وأرادت البرجوازية الاستفادة من ذلك لخنق الحريق الثوري. أما رجل الوضع فكان يدعى كيرنسكي (1).

بعد أن صار كيرنسكي وزيراً أول، ضرب الحزب البلشفي والمنظمات الثورية الأخرى بقساوة. لقد حاول استعادة تماسك الجيش، وأعاد عقوبة الإعدام، وحل الفيلق المتمردة، وعين الجنرال كورنيلوف رئيساً للأركان. في الوقت نفسه الذي استند فيه إلى "الشرعية" وإلى المؤسسات العليا للمجالس العمالية، حاول أن يسحق ديناميتهما الهدامة! ولقد تعاونت اللجنة التنفيذية (الإصلاحية) للمجالس تعاوناً نشطاً مع هذه السياسة، مساهمةً هكذا في إفراغ السوفييتات من مضمونها الثوري. وقد فقدت هذه الأخيرة حظوتها في نظر الطليعة العمالية.

شن كيرنسكي هكذا هجوم معمم ضد المكاسب التي كانت الجماهير قد فرضتها منذ شباط/فبراير. فضلاً عن ذلك، أجل إلى تاريخ غير معروف تحقيق المطالب الشعبية، المعترف بها دائماً... المرجأة باستمرار. امحت ازدواجية السلطات من دون أن تزول مع ذلك بالكامل. بات الحزب البلشفي يعاني من صعوبات خطيرة، لكنه احتفظ بوضعه كغالبية في صفوف الطبقة العاملة (كما تبين ذلك الانتخابات البلدية التي كسبها في أواخر آب/أغسطس 1917).

بات يعتقد البعض، في مواقع عليا، أن ساعة الثورة المضادة قد أزفت: الانقلاب العسكري. لقد أزاح كورنيلوف كيرنسكي من السلطة وجرب حظه في نهاية آب/أغسطس 1917 (يتبادر إلى الذهن تلقائياً ليندي وبينوشيت في أيلول/سبتمبر 1973 في الشيلي، أو إيبيرت-نوسكه وكاب في ألمانيا 1920). لكن في ثلاثة أيام، جرى إنزال الهزيمة "بجيشه" الذي هاجم العاصمة. استلمت سوفييتات بتروغراد قيادة المقاومة، عادت هكذا لتكون المركز السطحي للسلطة العمالية المضادة.

ثورة أكتوبر 1917

منذ بداية أيلول/سبتمبر، ترجّح رصاص الساعة باتجاه اليسار، بالقدر نفسه لترجحه في بداية تموز/يوليو باتجاه اليمين.

بات الحزب البلشفي يحوز الأكتريية داخل المجالس، بدءاً من بتروغراد ووصولاً إلى موسكو. وفي داخل الحزب، وضع لينين، الذي كان لا يزال متخفياً في فنلندا، الاستيلاء على السلطة والانتفاضة على جدول الأعمال. وطرح السؤال: متى؟ وكيف؟

من نيسان/أبريل إلى أيلول/سبتمبر، تعلم الحزب أن يناضل لأجل الأكتريية داخل المجالس بطريقة الديمقراطية العمالية.

من الآن وصاعداً، سوف تصبح وسائل هذه الديمقراطية هي جهاز الدولة الجديد عن طريق المبادرة الثورية.

إزاء هذا الانعطاف، كانت قيادة الحزب البلشفي تجتاز أزمة داخلية خطيرة قبل أن يفرض خط واضح نفسه. كان تيار "يميني"، حائز الغالبية بادئ ذي بدء داخل اللجنة المركزية، بقيادة زينوفييف وكامينيف، يتردد، ويدعو لإرجاء الاستحقاق ويريد العدول عنه. ونما بين لينين وتروتسكي، كلامهما نصير للتحضير المباشر للانتفاضة، جدال حاد أحياناً حول التكتيك المقترض اعتماداً. وقد تغلب يسار الحزب في الأخير داخل اللجنة المركزية، المجتمع في العاشر من تشرين الأول/أكتوبر.

جرت دعوة المؤتمر الوطني لمجالس العمال، والفلاحين والجنود للانعقاد في نهاية الشهر. في الوقت عينه، ردت اللجنة العسكرية الثورية، جهاز سوفيت بتروغراد، وكان على رأسها تروتسكي، ردت على استقاز من جانب قائد المنطقة العسكرية، بولكوفنيوكوف، الذي كان يريد تفكيك حامية المدينة، المنحازة كليا إلى جانب الثورة. هكذا بدأت الانتفاضة بتدبير من تدابير الدفاع الذاتي. لم تلزم غر ساعات قليلة لتفكيك جهاز القمع البرجوازي في بتروغراد. وبانت السلطة السياسية في متناول اليد، وكان على المؤتمر الوطني للمجالس أن يتخذ القرار النهائي. كان تركيبه السياسي قد أصبح مختلفا تماما عن تركيبه في شهر حزيران/يونيو 1917. فمن أصل 650 مندوبا، باتت الكتلة الإصلاحية (يمين المناشفة والاشتراكيون-الثوريون) تسيطر على أقل من مئة، فيما باتت المناشفة يتمتعون بغالبية مطلقة قوامها 390 مندوبا. وقد انضم إليهم يسار المناشفة والاشتراكيون-الثوريون اليساريون. وهو الأمر الذي دفع بالإصلاحيين، وقد باتوا أقلية، إلى الخروج من المؤتمر، مانلين هكذا إلى صفوف الثورة المضادة.

وقد جرى انتخاب لجنة تنفيذية جديدة للمجالس -شكلت مركزا تشريعيا حقيقيا للسلطة السوفيتية الجديدة- على قاعدة تعددية: 67 بلشفيًا، و29 اشتراكيًا ثوريا يساريًا، و20 مقعدا لمجموعات ثورية مختلفة. وانتخب هذه اللجنة التنفيذية بدورها الحكومة الأولى للدولة العمالية الجديدة. أعلن لينين: "إننا نبدأ ببناء النظام الاشتراكي الجديد."

كانت تلك بداية للثورة فرحةً وغير مؤلمة، لكنها ستمر بالامتحانات الرهيبة للحرب الأهلية، في السنوات 1918-1920، قبل أن تتوحد دعائمها...

الأحزاب والثورة

إن التنظيم الذاتي الديمقراطي للجماهير الشعبية هو وجه أساسي ونموذجي للثورة الروسية لكنه لا يضبط بذاته مسألة السياسة التي ستعتمدها بالفعل هذه السلطة المضادة.

يشمل التنظيم الذاتي مجموعة من الأحزاب مع برامجها، وتكتيكاتها ونشاطاتها، الخ . وفي الثورة الروسية، فإن الديالكتيك بين الأحزاب والمجالس الإقليمية هو الذي كان حاسما (بما أن الحركة النقابية يشوب نموها ضعف شديد، وحركة اللجان المصنعية لا تزال تابعة، على الرغم من أهميتها).

لقد تشكلت الأحزاب السياسية في وقت متأخر جدا وفقا لكيفيات خاصة للغاية (وهذا ما يفسره التكوين الاجتماعي الروسي في تلك الفترة: دولة استبدادية، وأبوية وتوتاليتارية في آن معاً تسحق "المجتمع المدني" أو تخنقه أو تمتصه.)

الكاديت

في عام 1917، وبجانب المجموعات الملكية المختلفة التي أصبحت هامشية، شكل حزب الكاديت (الدستوريين-الديمقراطيين) حزب الطبقات المسيطرة الرئيسي. هو الذي شكل أول حكومة مؤقتة منبثقة من ثورة شباط/فبراير 1917. وقد كان ميليوكوف، الأستاذ، والمؤرخ و"الأيديولوجي"، هو وغوتشيف، قيادتهم الرئيسي.

العماليون

كان كيرنسكي يقود، في عام 1917، الاشتراكيين الشعبيين، أو الترودفيك (العماليين). إن هذا الحزب، الذي بات حزبا ضئيل العدد، كان قد عرف أيام مجده في البرلمانات الزائفة لأعوام 1906-1914، وكان يجسد فيها الجمهور الفلاحي، الذي استيقظ على الحياة السياسية بعد عام 1905. كان هذا الحزب يجمع شخصيات سياسية، تستند إلى تطلعات البرجوازية المحافظة، في المناطق والأرياف، وإلى مشاعر القلق لديها. وبات كيرنسكي، هو ذاته، موضع ثقة البرجوازية الكبرى.

أحزاب الأممية الثانية

كانت ثلاثة أحزاب، منتسبة جميعا إلى الأممية الثانية، تتنازع التحاق الجماهير العمالية والفلاحة بها: المناشفة، والبلشفة والاشتراكيون-الثوريون. وكانت كلها تنسب نفسها إلى الاشتراكية، لا بل الماركسية، وإلى الثورة. وباستثناء أقلية هامشية ضمنها، كانت قد تبنت جميعها موقفا معاديا للحرب الامبريالية عام 1914. كانت سيرورة التوضيح السياسي صعبة إذا، وهي ستتم في أتون التجربة بالذات، خلال الأشهر الثمانية لزدواجية السلطة. إن أحداث صيف 1914 حاسمة في هذا المجال، ففي ذلك الصيف حدثت الانشقاقات إلى يمين ويسار لدى الاشتراكيين-الثوريين والمناشفة، وتم التوحيد الثوري داخل الحزب البلشفي. وهو ما لم يكن يستبعد الإبقاء على بعض البلبلية السياسية والتنظيمية في القاعدة وفي المقاطعات، داخل كل من تلك الأحزاب، لكن أيضا في ما بينها.

الحزب الاشتراكي-الثوري

استند هذا الحزب، المعاد تكوينه عام 1902، إلى تراث ثوري طويل يعود إلى أواسط القرن التاسع عشر. وقد كان خصما سياسيا مرهوبا لحزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي. كانت له الهيمنة المطلقة في الحركة الفلاحية، بالإضافة إلى تأثير مهم في المنشآت الصناعية الكبرى في المدن. هذا وقد كان ضعيف التنظيم ومشوشاً سياسياً. وقد أمن ما بين شباط/فبراير وأب/أغسطس 1917، القاعدة الاجتماعية الضرورية لحكومة التعاون الطبقي، التي كانت المنشقية تشكل رأسها السياسي.

خلال صيف 1917، انشق الحزب الاشتراكي-الثوري إلى جناح ثوري (سبيريدونوف، كامكوف)، قريب إلى المواقف البلشفية، وجناح يمين إصلاحي (تشيرنوف، غوتز)، يتعاون بصورة وثيقة مع المناشفة. وفي نهاية 1917 بات الحزب الاشتراكي-الثوري اليساري يتخطى اليمين من حيث التأثير بصورة واسعة.

المناشفة

كانوا يشكلون منذ عام 1903 الجناح "الثوري اليميني" في حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي. فقط إزاء استحقاقات عام 1917 انخرطت غالبيتهم (دان، لبير، تسريتللي) نهائيا في التعاون الطبقي. وقد تم ذلك لقاء انشفاق يساري بقيادة مارتوف ومارتینوف. فهذان الأخيران، وكانا "وسطيين" حقيقيين، اعترضوا على الحرب، ودعوا المجالس وكانا مع الثورة الاشتراكية عام 1917. لكنهما ترددا وتذبذبا إزاء المشكلة الأساسية بين مشاكل الثورة: الاستيلاء على السلطة وممارستها.

البلاشفة

كتكتل داخل حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي حتى عام 1912، بات البلاشفة الحزب الثوري الأساسي في عام 1913-1914، كاسبين لصالحهم الكوادر العمالية في المدن وقائدين إضرابا عاما في بتروغراد. وقد تم توطيد الحزب وانغراسه وتوسيعه لقاء نضالات وجدالات داخلية حادة: في عام 1914، خروج اليمين الشوفيني، وفي آذار/مارس-نيسان/أبريل 1917، صعود جناح انتهازى جديد (ستالين-كامينيف-زنيوفيف) حائز للغالبية، ومستعد لدعم الحكومة الليبرالية، وللقبول بمواصلة الحرب، جناح عارض أطروحات لينين الجذرية، وفي تموز/يوليو، صراع ضد تيار يساري يغيره الاستيلاء الفوري على السلطة، معركة ضد عصبوية قسم من الكوادر القديمة، المتحفظين على الاندماج مع تيارات أخرى (من بينها تيار تروتسكي)، وفي آب/أغسطس، جدال حول المبادرة الثورية واستبدال المجالس الإقليمية بلجان المصنع كقاعدة للديمقراطية العمالية، وأخيرا في تشرين الأول/أكتوبر، الجدال حول الانتفاضة ضد يمين الحزب، وهو جدال سوف يثار من جديد، مرارا، في السنوات اللاحقة.

لكن في تشرين الأول/أكتوبر، كان حزبا جماهيريا ذلك الذي خاض الصراع لأجل السلطة -حزبا تعترف به الجماهير الشعبية وتسانده.

الميجرايونتسي

كان تروتسكي، على قاعدة مواقفه الثورية الخاصة به، عضوا في التكتل المنشفي، أو مرتبطا به. لكنه قطع علاقته به في آب/أغسطس 1914. وفي تموز/يوليو 1917، انضم مع الميجرايونتسي (لجان ما بين المناطق، أو ما بين الدوائر)، على الحزب البلشفي.

هذه المجموعة الماركسية الثورية، النشيطة والمؤثرة في بتروغراد، كانت ضئيلة العدد: بين 60 و80 عضوا عام 1915، 150 عشية شباط/فبراير 1917، و4000 في تموز/يوليو، في حين كان يضم الحزب البلشفي 180 ألف عضو في كل البلد.

تيارات الأقلية

إن ظاهرة "لجان ما بين الدوائر" نتيج لنا أن نشدد على وجود عدة تيارات ومجموعات ثورية هامشية على صعيد البلد ككل، لكنها مهمة أحيانا في مدينة، أو منشأة أو قطاع. ومن بينها الفوضيون، والنقابيون الثوريون و"القصويون" (انشقاق متطرف يسارا في الحزب الاشتراكي-الثوري، والمناشفة الأمميون الموحدون) (حزب صغير لكنه مؤثر بفضل جريدة نوافيا جيزن -الحياة الجديدة- لماكسيم غوركي).

الثورة المضادة العالمية

كان لانتصار أكتوبر 1917 قوة دفع عالمية عظيمة. إن الدعوة لوضع حد فوري لمذبحة الحرب وإنزال العقاب بالمسؤولين عنها -الطبقات السائدة في أوروبا- أثارت الأمل في الخنادق والروح القتالية في المنشآت.

لقد وقعت الحكومات الهدنة في تشرين الثاني/نوفمبر 1918. لكن العديد من البلدان كانت قد بدأت تهزها الأزمة الثورية، وفي مقدمتها ألمانيا الإمبراطورية. فبالإضافة إلى روسيا القيصرية، كانت المتراس الرئيسي ضد الهدم (الثوري) في القارة الأوروبية منذ عام 1789 (الثورة الفرنسية). لقد أزال استقرار البلد تعاقب سريع للنضالات. فبين 1918 و1923، راحت البروليتاريا الألمانية تسعى لـ"التحدث بالروسية". لكن كان ينقصها حزب وري على مستوى روح القتال لديها وتراثها التنظيمي. وقد سُحقت الموجة الثورية في المرة الأولى في كانون الثاني/يناير 1919. وبما أنها كانت موجة قوية، فقد صعدت من جديد في عام 1920، ثم في عام 1921 ففي عام 1923.

إن التلاقي الممكن بين الاتحاد السوفيت -وكان بلدا واسعا مع ثروات زراعية ولكنه متخلف ورفيق الحال- وألمانيا اشتراكية، تشكل دولة عظمى صناعية قائمة في قلب أوروبا، مع بروليتاريا كبيرة العدد، ذلك التلاقي شكل تهديدا ممينا بالنسبة للرجعية الأوروبية. وإزاء تلك "الكتلة الاشتراكية" المحتملة، قام تحالف امبريالي واسع كان يضم الجيش الألماني (المهزوم، ولكن المرهوب حتى ذلك الحين) والجيش الروسي (المندحر، لكن الذي كان جنرالته "البيض"، أي المناهضون للثورة، يخوضون الحرب الأهلية)، والجيش الفرنسية والانكليزية والأمريكية المنتصرة في الحرب. هذا التحالف سوف يكتسح الاتحاد السوفيتي.

على الصعيد السياسي، كان حاسما الدعم الذي قدمته الاشتراكية-الديمقراطية، المنتقلة إلى جانب النظام البرجوازي. فلقد كبحت التضامن داخل عالم العمل، وأفقدت الاتحاد السوفيتي حظوته، وكسرت نمو الحركة الثورية في أوروبا الغربية. كان الهدف الوحيد هو سحق الثورة الاشتراكية وإعادة النظام البرجوازي. لقد خربت الحرب الأهلية الاتحاد السوفيتي. وفي ألمانيا والنمسا، وهنغاريا وإيطاليا، انهزمت البروليتاريا. وأحيانا بمساعدة مجموعات مسلحة خاصة من نوع جديد، هي الفرق غير النظامية في ألمانيا، والمجموعات الفاشية في إيطاليا.

إن ست سنوات من الحرب المتواصلة في الاتحاد السوفيتي بين 1914 و1920، سوف تسبب بكارثة اقتصادية، واجتماعية وإنسانية. لقد صمدت الدولة العمالية، المعزولة، لكن بناء الاشتراكية انطلق ضمن شروط صعبة بشكل مريع.

نهاية دورة

1917-1923: لقد انتهت الدورة للثورة العالمية. وبدأت دورة أخرى، هي دورة إرساء استقرار الرأسمالية على المستوى العالمي. وفي الاتحاد السوفيتي، كان الوضع مؤاتيا لظهور بيروقراطية أصحاب امتيازات، بقيادة ستالين. لقد خاض لينين، المحتضر، "معركته الأخيرة" ضدها، بين 1921 و1923. وفي

أوروبا الغربية، انتصبت الاشتراكية-الديمقراطية (تلك "الجثة النتنة" كما كانت تقول روزا لوكسمبورغ). استعادت قيادة الحركة العمالية في معظم البلدان. وتعززت النقابات الجماهيرية في العشرينات، بفضل إصلاحات مفروضة على برجوازية أفزعتها الثورة والنضالات الجماهيرية.

لكن نصر الاشتراكية-الديمقراطية في أوروبا الغربية، المتلازم مع انتصار الستالينية في الاتحاد السوفييتي، فتح الطريق للفاشية (إيطاليا، ألمانيا، اسبانيا). إن إخفاق الثورات الاشتراكية من 1918 إلى 1923 سوف يكون ثمنه باهضا جدا: الحرب العالمية الثانية. ولا يمكن أن نبخس تقدير أهمية تلك السلسلة المتعاقبة من هزائم البرولتاريا. إنها تنتج بوجه خاص أن نفهم بشكل أفضل حلول الوهن طويل الأمد في الحركة الثورية في المراكز الامبريالية، وسطوة النزعة الإصلاحية على الحركة العمالية في تلك البلدان.

إحالات

(* عقدة قطعها الاسكندر المقدوني الكبير بسيفه، وتأتي هنا بمعنى المعضلة، أو المشكلة الشائكة (م).)

(1) ادخل كيرنسكي اسمه في المصطلحات الماركسية و"الكيرنسكية" تدل من الآن وصاعدا على الحل البرجوازي النهائي للأزمة، قبل المواجهة التي تفتح الباب للثورة البروليتارية. لما كانت عاجزة عن أن تهزم بأساليبها البونابرتية السلطة العمالية، رفعت في نظر الجماهير الواسعة من قيمة الحل "الأقصى" الماركسي-الثوري: إطاحة النظام القائم.